من تراب الطريق (٤١٧) مقادير !(*)

على غير ما ترتيب ، ودون سعى ، فقد كنت قد خضعت لقسطرة تشخيصية علاجية على شرايين القلب التاجية فى ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩ ، توجت بتوسيع ووضع دعامة معالجة دوائيا بالوصلة الموصلة للشريان التاجى الخلفى . والمعتاد أن تمدنى بعمل معتاد لنحو عامين قبل أن أعاود الكَرَّة حين يظهر الضيق الجديد المتوقع فى إحدى الوصلات التى وضعت فى هيوستن بالولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ ، ولكنى تلقيت اتصالًا هاتفيا كريما من الأستاذ الدكتور حسن صبرى مدير عام مستشفى وادى النيل ، أنه تفضل بحجز موعد لعرضى على الخبير الفرنسى جان فاجيديه الموجود فى مصر يوم ٣٠/ ١/ ٢٠١٠ .

كان ظنى أن العرض تحصيل حاصل ، ولن يجاوز طمأنتى على ما تم فى ٢٤/ ١١ ـ ولكنى فوجئت بالخبير الفرنسى والأستاذ الدكتور حازم عبد المحسن يعكفان على فيلم القسطرة الأخيرة قرابة ساعة ، لينتهيا إلى تقرير مكتوب بأننى أعانى من قصور مزمن بالدورة التاجية للقلب ، وضيق بالشريان التاجى الأيمن والمحورى ، وأن هذا الشريان الرئيسى ـ وهو أُسّ المشكلة التى تسببت فى «الباى باس» عام ١٩٩٠ ـ يحتاج لتوسيع وتركيب دعامة معالجة دوائيا بواسطة الخبير الفرنسى جان فاجيديه .

(*) المال ٤/ ٣/ ٢٠١٠ .

الجديد فى هذا المقترح ، أنه ترك الوصلات التى ركبت فى العملية الجراحية عام ١٩٩٠ ، ويمم شطر الشريان الأيمن والمحورى الذى ما كان من الممكن الدخول داخله عام ١٩٩٠ لإجراء توسيع أو وضع دعامات فيه ، فلم يكن ذلك قد شاع بعد ، فكانت «الباى باس «بوضع الوصلات قبل وبعد أماكن الاختناق ، هو الأسلوب المتاح الذى أنجزته العملية الجراحية التى أجريت لى بالولايات المتحدة فى ذلك الأوان .

الجديد إذن أن الخبير الفرنسى يريد أن يدخل إلى شريان محورى اعتُبِر من عشرين عاما فى عداد المفقودات ، واستُعيض عنه بالوصلات الجانبية العابرة فوق مناطق الاختناق فيه .. ويبدو أنه دفعه إلى هذا الاختيار الصعب ـ أن الوصلات القديمة قد تهرأت بعد فوات عمرها الافتراضى بعشر سنوات ، وامتلأت تباعًا بالدعامات ، وصارت معرضة لما لا تحمد عقباه ، فآثر الخبير الفرنسى أن يعيد إحياء الشريان الأيمن المحورى ، عسى أن يمنحنى وقتا إضافيا آخر أمارس فيه حياة معتادة قبل أن يحين أوان الرحيل النهائى الذى ليس منه بد !

فى غرفة نومى بمنزلى برواز تقليدى ، وضعت بداخله كروكى القسطرة التشخيصية الأولى التى أجراها بمصر فى سبتمبر ١٩٨٩ الأستاذ الدكتور جلال السعيد ، ومرسوم عليها كروكى آخر بألوان مميزة بالوصلات الخمسة التى وضعها الطبيب الأمريكى جورج رووك بمستشفى القديس لوقا فى هيوستن بالولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. أداوم من وقت لآخر على الإطلال على هذا الكروكى لأستعيد نعمة الله التى وهبنى إياها ، وأتاحت لى أن أمارس حياة عادية لعشرين عاما كاملة كان ظنى أن أتهيأ بعدها للرحيل ،

لم يكن يشغلنى إلاَ عبارة زكريا الحجاوى :» مش قادر يبقى لى عمر تانى أكمل بيه الرسالةَ .» .. تذكرنى هذه العبارة بقلقى من أن تفوتنى فرصة الوفاء بما بقى فى ذمتى وأريد إنجازه قبل أن أفارق .. لا يزال فى ذمتى إتمام المشروع الفكرى الذى بدأته ، وإتمام العشرين مجلدًا من حصاد المحاماة التى لم يظهر منها للآن سوى أحد عشر مجلدا ، ثم لا يزال فى ذمتى أن أكتب عن أبى ﷺ ، وهو يستحق ذلك بكل المقاييس ، وأن أنشر ما كتبته عن بعض الأحبة : سعد زغلول نصار ، وفاروق خورشيد ، ويحيى حقى ، وصلاح عبد الصبور ، وأن أكتب عن محمود حسن إسماعيل الذى وعدت ابنته سلوان قبل أن ترحل أن أكتب عنه ، وفى أمنيتى أن أستكمل ما كتبته عن العقاد ، وأن أكتب عن توفيق الحكيم وطه حسين ، وأن أنشر كتابى عن أبى عبيدة بن الجراح ، وأن أتم المجلد السادس والأخير من مطول السيرة النبوية فى رحاب التنزيل الذى أنجزت منه خمسة مجلدات نشرت تباعا فى روزاليوسف ثم فى المكتب المصرى الحديث ، وربما كتبت لك يوما عن هذه البواقى التى أتمنى ولا زلت أن أفى بها ، ولكنى خلاف هذا الأمل فى إنجاز مشروعى ـ لا يعترينى خوف ولا جزع من الرحيل ، مدركا أن الموت نهاية كل حىّ ، فما هو إلاَ كتاب مؤجل إلى ميعاد ، فيقول الوارث الباقى : ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون] ، ويقول ﷻ : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف] .

عدت إلى الكروكى بالبرواز القابع إلى جوار مخدعى لأتأمل حال الشريان المحورى الذى يريد الدكتور جان فاجيديه الدخول إليه لإجراء توسيع ووضع ما قدر أنه دعامة واحدة معالجة دوائيا .. فوجدته حافلا ـ ما شاء الله !

بالاختناقات .. أولها بأعلاه ٣٠٪ ، ثم ثان بلغ ٦٦٪ ، ثم ثالث وصل إلى ٩٥٪ ، ورابع ٦٠٪ ، وخامس ٩٩٪ ـ غير تفريعة منه مليئة هى الأخرى باختناقات أحدها ٩٠٪ ، وآخر ١٠٠٪ ، وثالث ٨٠٪ !!

إذن فالشريان الأيمن المحورى المطلوب الدخول إليه ، به خمسة اختناقات حرجة ٣٠٪ ، ٦٦٪ ، ٩٥٪ ، ٦٠٪ ، ٩٩٪ ـ ودعنا من التفريعة وما فيها !!

كعادتى سلمت أمرى إلى الله ، واستلقيت مساء ٢٦/ ٢/ ٢٠١٠ بغرفة العمليات بمستشفى وادى النيل ، مطمئنا بين يدى الرحمن ، والبراعة التى وهبها الله تعالى لهذا الطبيب الفرنسى العبقرى . استغرق هذه المرة ثلاثة أضعاف ما يستغرقه فى كل مرة ، ولكنه أنجز مهمة ضخمة لم يكتف فيها بالتوسيع ودعامة ، بل وضع بعد التوسيع ـ ثلاث دعامات أعادت جريان الدماء فى هذا الشريان المحورى المغلق تماما منذ عام ١٩٩٠ !

ماذا أردت أن أقول لك ؟! إننى بالطبع حمدت الله وسجدت وأسجد له شاكرًا عارفًا حامدًا ، ولكن هذه القصة كلها ذكرتنى بقالة جدودنا البسطاء : «العبد فى تفكير والرب فى تدبير» .. إننى ما سعيت ولا رتبت ، ولكن المقادير هى التى قادتنى بعناية الله ورحمته إلى حيث أراد . فهل بقدرتى أن أفى بما طوقنى به ربى وأسبغه علىّ من فضله ونعمته ؟!

*****